مع العربية في عراقتها

بقلم محيي الدين اسماعيل

في العدد السابع (تموز ١٩٦٨) من « الآداب » كلمة بقلم الاستاذ عبد الحق فاضل تحت عنوان « العرب أول الفلكيين » ، وهي محاولة طيبة لدراسة تاريخ العرب من خلال دراسة أتيمولوجيا اللغة العربية ومقارنة هذه اللغة باللغات الاخرى .

ان هذا البحث ـ في رأيي ـ من اكثر المباحث امتاعا ونفعا ، فهو الى ما فيه من شحذ للملاحظة وتعميق لها ، يجيب عن أسئلة كثيرة قد لا نجد عنها جوابا في أبحاث التاريخ والحفريات .

ولا بد لي هنا أن أنص على اني لست من المتخصصين في هذا البحث ، ولست أملك من أدواته سوى اللغة الام ولغة أوروبية حديثة هي الانكليزية ، أما اللاتينية فقد وقفت عند « بابها » ... عند تصريف كلمة « باب » ، ثم لم يفتح علي بشيء !

بيد ان افتقاري لادوات البحث المتعمق لم يمسك دوني الابواب جميعها ، فقد كانت لدي ، يوما ، بعض الملاحظات في قص اثر اتيمولوجيا اللغة العربية ومقارنتها بأتيمولوجيا اللغات الاخرى .

وعندما أصدر المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد كتابه « الحضارة العربية أسبق من الحضارتين العبرية واليونانية » وجهت اليه رسالة ضمنتها بعض هذه الملاحظات التي من شأنها أن تؤكد رأينا في أسبقية الحضارة العربية ، وعند مناقشة المرحوم العقاد في ذلك على صفحته في جريدة « أخبار اليوم » وقف عند قوله : « ان هذا البحث تتوه فيه الظنون » !

ولقد سجلت في هذا البحث طائفة من الافكار والشذرات الموزعة ، رأينا ان من المفيد العودة اليها واجمالها ، بعد أن أطلعت على كلمة الاستاذ فاضل في عدد « الاداب » الفائت .

واني أرى ان الالفاظ التي اعتمدها الاستاذ فاضل ليست ذات دلالة حاسمة على أسبقية اللغة العربية وحضارة العرب على اللغات والحضارات الاخرى . فهي محض أمثلة على الالفاظ المستعارة من العربية في اللغات الاخرى ، كما نستعير نحن اليوم كلمة « رابور » و « تلفون » و « تلفزيون » من اللغات الاوروبية . ويبدو لي ان كلمة « النوء » و « النوتي » قد استعيرت من العربية ودخلت اللغة اللاتينية ، وبالتالي اللغات الاوروبية الحديثة في عهود متأخرة لا تتعدى مطلع القرون الوسيطة .

اننا لو شئنا الاستعانة بالمباحث الفيلولوجية لاثبات أسبقية الحضارة العربية ، لتكشفت لنا مذهلات يزيغ ازاءها الفكر .

وقبل البدء في ضرب الامثلة على ذلك ، أود أن أضرب مثلا على ما تنطوي عليه اللغة العربية من أبعاد كونية معجزة .

فلنأخذ ، مثلا ، الفعل (مد) ، ولا يهمني هنا أن يكون اللفظ ثنائيا على رأي الثنائيين من الفيلولوجيين ، أو أن يكون ثلاثيا على رأي اللغويين ، فالامر عندي سيان.

هذا الفعل يصدر عنه ، أو من جذره لفظ «الامتداد» وهو المكان ، ثم يصدر عنه لفظ « المدة » وهو الزمان . ففي جذر هذا الفعل تكمن أعلى صورة من صور الفهم الانساني لطبيعة الوجود ، وبكلمة أخرى يكمن في جذر هذا اللفظ ما أسماه انشتاين وادينفتن بـ « الزمكان » . فالعقل الانساني عاجز عجزا مطلقا نهائيا عن تصور المكان دون الزمان ، أو تصور الزمان بدون المكان . ثم من هذا الجذر يصدر « المدى » للزمان والمكان و « المادة » ، وأعاجيب أخرى كثيرة .

وليس ثمة مراء في ان أمثال هذه المذهلات لا تجدها في سوى اللغة العربية ، هذه اللغة التي قال عنها أحد كبار المستشرقين (بول كراوس) : بأنها ادق ألف مرة من اللغتين المؤتمتين : الاغريقية واللاتينية .

بعد ذلك أود أن أضرب أمثلة توضح الرأي في أسبقية اللغة العربية ، وهي ليست من الالفاظ التي تعاورتها اللغات واستعارتها الواحدة من الاخرى .

ولا ريب في ان لفظ « الشمس » لا بد أن تكون من أقدم الالفاظ وأوغلها في القدم ، لما لها من صلة بالاخصاب والعبادات القديمة .

ولعل من المستغرب القول فورا بصلة لفظ «الشمس» بلفظ Sun الانكليزية أو Soleil الفرنسية ، ولكن البحث الاتيمولوجي يوضح لنا هذه العلاقة . ثم تتضح العلاقة ويسقط كل شك محتمل بعد ذلك اذا ما عرفنا صلة لفظ « السنة » وهي دورة الارض حول الشمس بالشمس ذاتها ، ثم اذا ما عرفنا صلة لفظ « السن » أي العمر الزمني بها .

ومن أعرق العبادات التي عرفها الانسان ، عبادة

الذكورة باعتبارها مصدرا للاخصاب ، وقد عرفتها العبادات الديونيسوسية عند الاغريق في العصور التي عرفت بالعصور الاسطورية . ولنأخذ اللفظة ذاتها Phallus . واذا ما عرفنا ان الفاء والباء حرفان متعاوران ، فنحن نقول افلاطون عن Plato ، أدركنا بوضوح أصل اللفظ العربي بعد أن خضع لقوانين التطور الفلولوجية طبقا لقوانين غريم وقوانين ماكس مولر المعروفة والقائلة بأن اللفظ يجب أن يخضع للتطور الذي يبدو في تحوير ببعض حروفه ، كتحول الباء الى فاء أو العكس ، والطاء الى ثاء أو العكس ، والشين الى تاء أو العكس ، وما الى ذلك مما حددته قوانين التطور الفلولوجي. فنحن لا نقول بأن اللفظ الانكليزي Refuse من اللفظ العربي «رفض» لان اللفظين متشابهان متقاربان الى درجة تدل على انهما بنيا من أصل واحد ، والدليل على ذلك هو الرجوع الى أصل الكلمة في الانكليزية . نقول في هذه الحال سندرك أصل اللفظ العربي ، وهو « بعل » أي الزوج ، مصدر قوة الاخصاب بالطبع ، وكشفنا عن علة هذه العبادة القديمة . ثم سنتذكر على الفور عبادة « بعل » التي عرفت في الشرق في بلاد ما بين الرافدين وفي أرض كنعان ، وقد تكون هي ذاتها عبادة (الفالوس) انتقلت من أرض كنعان الى اليونان .

ولو شئت أن أستعرض جميع الملاحظات التي سجلتها يوما في هذا المجال لما اتسع صدر هذه العجالة لمثلها .

ولكني سأورد ثبتا موجزا في ذلك ، أرجو أن تتمهل في الحكم عليه ، آخذين في تقديرنا خضوع كل لفظ لقوانين التطور الفلولوجي .

لاحظ ما يلي :

١ ــ Milk الانكليزية وبالعربية حليب ولاحظ « ملق » العربية ــ ملق الطفل أمه أي رضعها .

٢ ــ Horn الانكليزية وبالعربية « قرن » .

٣ ــ Mild الانكليزية وبالعربية لطيف معتدل ، ولاحظ ملد الغصن أي ألانه ، والاملود والاماليد أي اللين من الناس أو الاغصان .

٤ ــ Corner الانكليزية وبالعربية قرنة .

٥ ــ Mantle الانكليزية أي الحجاب أو الغطاء أو العباءة ، ولاحظ « المنديل » ثم لاحظ « المندل » وعلاقته بالحجب والاسرار السحرية القديمة .

٦ ــ Canto الايطالية المستعارة في الانكليزية وفي جميع اللغات الاوروبية الحديثة على ما أظن ، أي النشيد أو الاغنية ، ولاحظ جذر هذه الكلمة وعلاقته بالفعل العربي « غنى » .

٧ ــ Peter الاسم اللاتيني المعروف وقد عرب فقيل بطرس ، لاحظ القديس بطرس الصخرة . ولاحظ اللفظ الانكليزي Petrification أي « تحجر » ولاحظ بصرى والبتراء المدينة المنحوتة في الجبل والبصرة أي الحصى الصغير الابيض .

٨ ــ Banana الانكليزية أي أصابع الموز ، ولاحظ « بنان » العربية أي اصبع .

٩ ــ Acme الانكليزية أي قمة

١٠ ــ Ferocious الانكليزية أي ضار أو متوحش وبالعربية « مفترس » وفرس يفرس وافترس يفترس ، والفرس هو من الحيوانات الاولى التي دجنها العرب وأنسوها وأدخلوها الى مصر أيام دخول العمالقة (الهكسوس) الى أرض النيل ، وكان قبل ذلك من الحيوانات الضارية.

***

هذه بعض ملاحظات موجزة بشأن المضاهاة الفلولوجية بين العربية وغيرها من اللغات ، آثرت أن أستند بها الى الالفاظ العتيقة الاستعمال ، والتي هي ليست من الالفاظ الفنية ، ذلك ان الالفاظ والمصطلحات الفنية تظهر عادة في أدوار تاريخية متأخرة ، بحسب متطلبات التحضر ومقتضيات الحياة الاجتماعية .

وان هذه الدراسة ستعيننا ، في أغلب الاحيان ، على اجابات خطيرة عجز عن الاجابة عنها التاريخ ومباحث الحضريات والآثاريات . وقد تنتهي بنا الى الكشف عن وشائج تاريخية سحيقة ، فهي ليست محض دراسات مترفة تثيرها أحاسيس الغرور ، لكي نكتفي بالقول ان العربية أسبق من اللغات الاخرى ، فتلك حقيقة تبدو لنا بأشد ما يكون الوضوح منذ الخطوات الاولى في هذا البحث الهام ، ويدعمها تحديد الجهات الاربع ، وبصفة خاصة الشرق والغرب بالنسبة للعالم . فالشرق شرق بالنسبة للشرق الاوسط والغرب غرب بالنسبة لهذه المنطقة من العالم . وليس هناك من تفسير اخر لانحياز الشرق شرقا والغرب غربا سوى اعتبار هذه المنطقة من العالم هي نقطة التحديد في خطوط الطول وخطوط العرض .

ومن يدرينا لعل هذا البحث يجيبنا عن صلات أخرى لا نستطيع الان القطع برأي فيها ، ومثال ذلك الصلة بين « هبل » كبير الآلهة العربية و « أبولو » ، و « العزى » و « ايزيس » ، وما الى ذلك مما ليس بالوسع رفضه قبل الاقدام على البحث فيه .

ولدي ملحوظة أخرى أود أن أسجلها هنا ، تلك هي ان الباحث في أمر هذه المضاهاة الفلولوجية العسيرة ، التي تتطلب قدرا غير قليل من دقة الملاحظة وحاسة لادراك العلاقات بين الالفاظ والاشياء ، يتحتم عليه أن يعرف تاريخ أي لفظ يريد التعامل معه . ومثال ذلك يتحتم عليه أن يعرف أصل الكلمة الافرنجية (الانكليزية) Refuse قبل أن يقرر صلتها بالكلمة العربية (رفض) ، وعليه أن يعرف مثلا أصل الكلمة الافرنجية المستعارة من اللاتينية Calcus التي تستخدم لحساب

اغنية صحراء النقب ..

من ذا .. سيغني
مقطعنا الاول
في أغنية الكلمات العطشى
لاغاني الريح الوحشيه ..؟
وعيون القافلة الحيرى
في بحر الصمت الدامى
صلبتها حيتان الرعب
في جزر الوهم الطفلية .. !

***

عبثا تتلوى أعيننا
تبحث في كل الشطئان
تبحث عن كنز مخبوء
عن كنز يمنح أعيننا
تمييز الالوان الحمقى
يمنح اعماقا ضائعة
يمنحها مقطعها الاول
لتغني .. في بحر الصمت الدامي
لشراع الفجر المصلوب
في أرض الصمت الوحشية ..!

***

هوذا « اوديس (١) » .. بلا صحب
يتحدى ساحرة البحر
ورفاق الماضي .. ما عادوا
من جزر الوهم الطفلية ..!
سحرتهم كاهنة الصمت
حين تخلوا
عن سفر الانسان الحب ..!
حين تناسوا
أول مقطع
في لحن الانسان الحب
الرافع وجها للشمس .. !
سحرتهم كاهنة الصمت
خرفانا .. تثغو .. لاهية
وأرانب .. حينا .. وكلابا
ورمتهم لاله البحر
فمضوا يشكون له مما
فعلته كاهنة الصمت ..!
فرماهم في كهف الموت
لهوا .. وحساء .. وطعاما
ونبيذا .. وبقايا جنس
منقرض .. يؤنس وحشته
ويصفق في كل مساء
ويصلي
لعدالة « نبتون » الاعمى ..!
ذي العين الواحدة الجوعى
لقطيع القافلة الحيرى
في قاع الريح العدمية ..!

***

« أوديس » يفتش في قلق
في كل الشطئان .. ينادي
ايمان الانسان الحب
تعوي عيناه مع الريح ..!
يصرخ في كل الشطئان
يسأل عن كنز مخبوء
في جزر حبلى بالكلمة ..!
لا تنبت أعشاب الخوف
لا تخشى تنين البحر
ما أدت صلوات الرعب
في معبد « نبتون » الاعمى ..!
لم ترهب أكفان الموت
في عيني ساحرة الصمت ..!
تبحث .. عن كنز يمنحها
يمنحها .. مقطعها الاول
في أغنية الكلمات العطشى
لبحار اللهب الوحشية
في صحراء « النقب »
في أرض الصمت العربية .. !

القاهرة — **سعد دعبيس**

---

(١) أوديس « اوديسيوس » بطل الاوديسة

التفاضل والتكامل ، والتي تستخدم أيضا في لغة الطب تعبيرا عن الحصاة في الكلية ، فهذه الكلمة قد طرأ عليها تغيير وتشويه كثير فقد صدر عنها في اللغات الاوروبية الحديثة فعل Calculate واسم Calculation أي حسب أو عد وحساب أو عد أو تعداد ، وأصل هذه اللفظة وتاريخها يشيران الى انها لا تعني سوى حصاة في اللغة اللاتينية وان معنى العد أو الحساب قد جاء من استخدام الحصى في حساب الفراسخ أو المراحل عند السفر ، فكان يسافر كلما قطع فرسخا أو مرحلة وضع حصاة في صندوق كان يثبت في مقدم العربة ليعرف عدد الفراسخ أو المراحل التي قطعها .

وبعد ذلك ، أليس في هذا البحث أجوبة كثار ؟!

محيي الدين اسماعيل